رسالة عيد الصليب
(1كو1: 18 - 23)
للقديس يوحنا الذهبى الفم

"فَإِنَّ كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ وَأَمَّا عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ اللهِ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ : سَأُبِيدُ حِكْمَةَ الْحُكَمَاءِ وَأَرْفُضُ فَهْمَ الْفُهَمَاءِ ."أَيْنَ الْحَكِيمُ؟ أَيْنَ الْكَاتِبُ؟ أَيْنَ مُبَاحِثُ هَذَا الدَّهْرِ؟" (1كو1: 18 - 19)

بالنسبة للمرضى، للمشرفين على الموت يبدو لهم الطعام الصحى مرفوضاً كما يبدو الأصدقاء والأهل مثقلين عليهم بحيث أنهم ولو قبّلوهم يتضايقون منهم. هذا ما يحصل أيضاً مع "الهالكين" الذين خسروا أنفسهم. هؤلاء يجهلون كل ما يجلب عليهم الخلاص. يتضايقون من كل من يهتم بهم. هذا لا يأتى من طبيعة الموضوع بل بسبب مرضهم.

كل ما يحصل لفاقدى العقل الذين يهينون دائماً المهتمين بهم كذلك بالضبط يحصل مع غير المؤمنين. مما يشكل البرهان القاطع لضعفهم عندما يتجاهلون الأشخاص الأكثر حباً لهم. وكما أن المُهانين لا يُبادلون الاهانة بالمثل بل بالأحرى يرحمونهم ويرثون لهم. كذلك علينا نحن أن نفعل من أجل الوثنين، لنرْثِ كثيراً لهم ونرحمهم لأنهم يجهلون خلاصهم.

يجب علينا أن نحب الناس كلهم أكثر من محبة المرأة لرجلها. كما علينا أن نجذبهم إلى الخلاص أكانوا من الوثنين أو من غيرهم.

لنبكِ إذاً عليهم لأن كلمة الصليب بالنسبة لهم جهالة بينما هى حكمة الله وقوته (1: 18). كان على أهل كورنثوس المؤمنين أن يقاوموا الوثنين المستهزئين بالصليب. رغم اضطرابهم لطبيعة كلامهم. جاء بولس الرسول يعزيهم قائلاً: لا تعتبروا موقف الوثنين غريباً لأن من الطبيعى "للهالكين" أن يجهلوا قوة الصليب لأنهم فقدوا رُشدهم ولذا يهزأون ويرفضون أدوية خلاصهم.

ولكن ما قولك أيها الانسان ؟ لقد أصبح المسيح عبدا من أجلك أخذ شكل عبد وصلب وقام. وبعد أن قام، عليك أن تسجد له وأن تُعجَب من محبته للبشر لأن مالم يفعله؛ لا الأب ولا الصديق ولا الابن قد فعله كله الرب من أجلك أنت العدو والمشاكس.

كان عليك أن تعجب من كل ذلك فكيف تدعوا جهالة ما قد حصل بحكمة كبيرة. لكننى لا أستغرب الأمر لأن الهالكين من شأنهم ان لايعترفوا بمن يرشدهم إلى الخلاص. لاتضطرب اذا. توقع أن يستهزأ بالأمور الكبيرة من قبل الجاهلين الذين يشعرون بكل هذا لا تقنعهم الحكمه البشرية وأن شئت أن تقنعهم بحجج عقلانية كيف صار الله إنساناً، كيف دخل الحشا البتولى إن لم يُقس الموضوع كله بالإيمان سوف يستهزئون بنا حتماً.

"الهالكون" إذاً هم الذين يفتشون عن حجج عقلانية لكى يقتنعوا... إن شئنا أن نفسر كل ما يختص بالله عن طريق الحكمة البشرية، نضحك على أنفسنا لأن ذهن الإنسان غير قادر على ذلك. لا يستطيع الكلام أن يشرح عظائم الله.

عندما أقول "صُلِب" يستاءل الوثنى كيف نفسر ذلك؟ عندما كان مصلوباً لم يساعد نفسه كيف قام بعدها وساعد الآخرين؟ إن كان لديه قدرة كان يجب عليه أن يظهرها قبل الموت. هذا ما كان اليهود يقولونه: الذى لم يساعد نفسه كيف ساعد الآخرين؟ إنه أمر متناقض. طبعاً الصليب متناقض وقوته لا يعبر عنها بالكلام لأن الذى يقع فى الاخطار ويتخطاها يواجهها ويتغلب عليها هذا يبرهن علىأن لديه قوة غير محدودة.

حصل هذا مع الفتية الثلاثة: دخلوا الأتون وغلبوا اللهيب فاستحقوا عجباً أكبر مما لو لم يدخلوا. كذلك يونان دخل جوف الحوت ولم تصبه مضرة وظهر أعظم مما لو لم يدخله. هكذا أيضاً مع المسيح مع أنه مات، حل أمخاض الموت فظهر أعجب مما لو لم يمت.

لا تقل إذاً لم يساعد نفسه على الصليب؟ لأنه كان يفتش عن مواجهة موته. لم ينزل عن الصليب لا لأنه لا يستطيع بل لأنه لا يريد. هذا الذى لم تستطع أمخال الموت أن تقبض عليه كيف تستطيع المسامير أن تمسكه؟

كل هذا معلوم عندنا لكنه مجهول لدى الملحدين. لذلك قال: "إِنَّ كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ وَأَمَّا عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ آللهِ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ : سَأُبِيدُ حِكْمَةَ الْحُكَمَاءِ وَأَرْفُضُ فَهْمَ الْفُهَمَاءِ". حتى الآن لم يقسُ بعد فى كلامه يستشهد أولاً بالكتاب ثم يقول بشدة فى 1كو1: 20- 21 "[أَيْنَ الْحَكِيمُ؟ أَيْنَ الْكَاتِبُ؟ أَيْنَ مُبَاحِثُ هَذَا الدَّهْرِ؟" أَلَمْ يُجَهِّلِ اللهُ حِكْمَةَ هَذَا الْعَالَمِ؟ لأَنَّهُ إِذْ كَانَ الْعَالَمُ فِي حِكْمَةِ اللهِ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ بِالْحِكْمَةِ اسْتَحْسَنَ اللهُ أَنْ يُخَلِّصَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَهَالَةِ الْكِرَازَةِ].

بعد أن قال: "سَأُبِيدُ حِكْمَةَ الْحُكَمَاءِ" يضيف برهاناً على كلامه من الواقع " أَيْنَ الْحَكِيمُ؟ أَيْنَ الْكَاتِبُ؟" فيحكم هكذا فى آن واحد على الوثنين وعلى اليهود لأنه مَن مِن الفلاسفة من هؤلاء الذين تعاطوا المماحكات العقلية وكذلك من الحكماء اليهود خلص وعرف الحقيقة؟ لا أحد. كل شئ أتى من عمل الصيادين.

وصل إلى هذه النتيجة فقضى على كبرياءهم وقال "لقد أظهر الله حكمة هذا العالم جهالة" وأعطى السبب "لأن فى حكمة الله لم يعرف العالم الله بحكمته" لذلك ظهر الصليب. وماذا يقصد ب "حكمة الله"؟ أى الحكمة الظاهرة من خلال خليقته التى بواسطتها كان يجب على الناس أن يعرفوه. لقد أبدع الله خليقته بطريقة تدعو الإنسان إلى الإعجاب بالخالق. السماء عظيمة والأرض لا حد لها فاعجب بخالقهما! خاصة أن السماء هذه أبدعت وبسهولة أيضاً وكذلك الأرض لذللك قال الكتاب: "السماوات هى عمل يديك" (مز8: 4). "الذى جعل الأرض من لاشئ" (اش 40: 23). بما ان الإنسان لم يشأ أن يعرف الله عن طريق هذه الحكمة (أى عن طريق خليقته) اقنعه بما دعاه "جهالة الكرازة" لا بالعقل بل بالإيمان.؟ "لأَنَّهُ إِذْ كَانَ الْعَالَمُ فِي حِكْمَةِ اللهِ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ بِالْحِكْمَةِ اسْتَحْسَنَ اللهُ أَنْ يُخَلِّصَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَهَالَةِ الْكِرَازَةِ" (1كو1: 21).

إن قال أحد أن الذى خلق مثل هذا العالم العظيم لا بد أن يكون إلهاً مقتدراً عجيباً جداً، يكون قد استخدم المنطق، العقل المتوفر لدى الحكمة البشرية، للمنطق، للعقل الحاجة هى للإيمان فقط. لأن الذى يؤمن بأن الله قد صُلب بالجسد ودُفن وأنه هو نفسه قد قام وصعد إلى السماء. كل هذا لا يحتاج إلى الحكمة البشرية لا إلى المنطق العقلى بل إلى الإيمان. لأن الرسل لم يأتوا عن طريق الحكمة بل عن طريق الإيمان فأصبحوا أحكم من حكماء العالم. لذلك كل من اقتبل حقائق الله بالايمان يفوق قوة المنطق لأن ذلك يفوق المنطق البشرى.

وكيف حكم على الحكمة البشرية؟ إن كرازة بولس والرسل البسطاء برهنت على أن الحكمة البشرية لا تجدى نفعاً.. بل بالأحرى يمكننا القول أن البساطة أكثر من الحكمة تصلح لتقبل الكرازة لأن الراعى أو القروى سوف يتقبلها بسرعة أكبر. يستخدم العقل بمقدار ويستسلم غالباً إلى الرب. هكذا قضى الله على الحكمة البشرية. كون هذه الأخيرة قد قضت أولاً أن تعرف الله بقوتها الخاصة. والآن إن شاءت أن تعرفه عن طريق قواها لا تستطيع لأن الطريق الآن قد اضحت اسمى بكثير مما قبل.

لذا نحن بحاجة اليوم إلى الإيمان وإلى البساطة وعلينا أن نسعى وراءها وأن تفضلها على الحكمة لأنه قال: "لقد جهّل الله حكمة هذا العالم" ماذا يعنى بذلك؟ أى أظهرها جهالة من أجل الفهم عن طريق الإيمان. كونهم قد تعظموا عن طريق الحكمة حكم عليها سريعاً. أين هى مقدرتها طالما لم تعد تستطع ادراك الخيرات السماوية!؟

جعل الله الحكمة البشرية تبدو وكانها جهالة لأنها هى أولاً حطت من شأن نفسها. لأنها لم تصل إلى شئ حين كان بمقدار المنطق العقلى أن يجد الحقيقة. الآن وقد ظهرت الأمور بمظهر اسمى بكثير كيف تستطيع هذه الحكمة أن تنجز شيئاً فى الوقت الذى كانت الأمور تحتاج فيه إلى الإيمان لا إلى القدرة العقلية. لقد أظهرها الله جهالة بل تبدو وكأنها كذلك. والأهم أن الله لم يأت بحكمة فائقة

على الأولى لكنه علّى كثيراً من شأن ما يبدو جهالة. أزاح أفلاطون جانباً لا بواسطة فيلسوف أحكم بل عن طريق صياد أمى، هكذا ظهرت الغلبة أعظم والظفر أبهى. بعدها يُظهر قوة الصليب قائلاً: "لأَنَّ الْيَهُودَ يَسْأَلُونَ آيَةً وَالْيُونَانِيِّينَ يَطْلُبُونَ حِكْمَةً وَلكِنَّنَا نَحْنُ نَكْرِزُ بِالْمَسِيحِ مَصْلُوباً :لِلْيَهُودِ عَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً ! وَأَمَّا لِلْمَدْعُوِّينَ : يَهُوداً وَيُونَانِيِّينَ فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةِ اللهِ وَحِكْمَةِ اللهِ." (1كو1: 22 - 24).

فى هذا الكلام فطنة كبيرة. يريد أن يظهر أن الله بستخدم المتناقضات من أجل الوصول إلى غرضه وأن الكرازة ليست بشرية. ويقصد ما يلى: إن قلنا لليهود "آمنوا" يجيبون: أقيموا الموتى، اشفوا المجانين، أظهروا لنا عجائب، أما نحن فماذا نقول عوض ذلك: لقد صلب ومات ذاك الذى نكرز به. هذا ما يبدو كاف ليس فقط لعدم جذب من لا يريد بل وأيضاً لإبعاد من يريد، ومع ذلك لا يبتعد بل ينجذب يتمسك ويقوى.

من جهة ثانية يطلب منا الوثنيون كلاماً فصيحاً وحكمة بارعة أما نحن فنكرز لهم بالصليب الذى يبدو لليهود علامة ضعف وللوثنين علامة جهل لأنه ليس فقط علامة ضعف لا يُفحص عن طريق العقل، بل هو علامة غياب أية آية. ليس هو علامة عدم قوة فقط بل وأيضاً علامة ضعف. لا يعتبر فقط علامة عدم حكمة بل وأيضاً علامة جهالة. هكذا لا يُعطون فقط ما يطلبون بل يُعطون عكس ما يطلبون. يطلبون آية وحكمة فيسمعون عكس ما ينتظرون وبعدها يقتنعون بذلك. كيف إذاً لا تُتخذ الكرازة بالصليب قدرة عجيبة.

هذا ما يحصل بالضبط لأحد يشقى من الأمواج ويطلب ميناءً هادءاً فتظهر له مكاناً أشقى من البحر ويقتنع بذلك ويتبعك بامتنان. أو أحد مريض يطلب دواءً فيأتى الطبيب فيعطيه بدل الدواء كياً محرقاً فيقتنع المريض وينتفع. هذا ما يبرهن عن قدرة كبيرة. هكذا حصل مع الرسل الذين لم يستخدموا آيات بل استخدموا ما يعاكسها ونجحوا فى مهمتهم. هذا ما فعله المسيح فى حالة الأعمى كان يريد شفاءه فاستخدم شيئاً يزيد عماه عندما وضع طيناً على عينيه، كما شفى الأعمى بالطين كذلك ربح العالم بالصليب مما زاد العثرة ولم يلغها.

فعل كذلك مع الخليقة. أنجز النقيض بالنقيض. حوط البحر بالرمل أى كبح القوة بالضعف. وطد الأرض على المياه فجعل الثقيل يرسى على السائل. هكذا بالصليب يحمل المسكونة. إذاً إن يُقنع الواحد الآخر عن طريق ما هو مناقض يبرهن عن قدرة كبيرة للصليب يبدو وكأنه معثر لكنه غير معثر بل هو جذاب لكثيرين.

ولربنا المجد الدائم.